في الأدب العربي

حلقات الأدب في الفسطاط

للدكتور محمد عبد الله عنان

— ٢ —

لبثت الفسطاط عاصمة الاسلام في مصر منذ قيامها سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) حتى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م). وفي ذلك العام كان الفتح الفاطمي، وكان قيام القاهرة المعزية التي وضعت خططها الاولى في شعبان سنة ٣٥٨، ونشأت القاهرة بادىء بدء مدينة ملكية فقط لتكون قاعدة للدولة الجديدة ومقرا للخلافة الفاطمية [1]، ونشأ جامعها الازهر الذي أسس بعد قيامها باشهر قلائل (جمادي الاولى سنة ٣٥٩هـ) مسجدا للامامة الجديدة فقط. ومضى زهاء نصف قرن قبل أن تغدو العاصمة الجديدة في شيء مما تميزت به بعد ذلك بين الامصار الاسلامية من عظمة وروعة وبهاء، وقبل أن يبدأ الجامع الأزهر تاريخه الادبي الباهر. ولكن ظل الفسطاط بعد ذلك عصورا تحتفظ بمكانتها الادبية، ولبثت حلقاتها ولياليها الادبية شهيرة بين أدباء الشرق والغرب. وبدأ الجامع الازهر ينافس المسجد الجامع في حلقاته ومجالسه الادبية منذ عهد الخليفة العزيز بالله، اذ استأذن وزيره الشهير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨ هـ ان ينظم بالازهر على نفقته بعض مجالس القراءة والفقه. وفي خاتمة القرن الرابع، في عهد الحاكم بأمر الله، انشئت دار الحكمة بالقاهرة ونظمت مجالسها، فكانت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية

ولسنا نتحدث عن القاهرة ومكانتها العلمية والادبية بين الامصار الاسلامية في العصور الوسطى، ولا عن أزهرها الذي غدا فيما بعد أعظم جامعة اسلامية، كذلك لسنا نتحدث عن دار الحكمة ومجالسها الشهيرة التي كانت تتخذها الخلافة الفاطمية اداة لتحقيق دعوات دينية فلسفية غامضة، فذلك ليس من موضوعنا. وانما نتتبع تاريخ الفسطاط الادبي، بعد قيام القاهرة، منافستها العظيمة الفتية

فقدت الفسطاط اهميتها السياسية والرسمية، ولكنها احتفظت عصورا أخرى بأهميتها الاجتماعية والادبية وفي فترات كثيرة كانت تتفوق على القاهرة بطابعها الادبي. وهذا ما يشيد به بعض أدباء الشرق والاندلس الوافدين على مصر في عصور مختلفة. ومن هؤلاء أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الاندلسي الذي وفد على مصر في أوائل القرن السادس الهجري [2] في عهد الافضل شاهنشاه. ودرس الحركة الفكرية والادبية في مصر بوجه وكتب عنها رسالة لم يصلنا سوى شذور قليلة منها. وفي هذه الشذور [3] يتحدث ابن أبي الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها، ومجالسهم واجتماعاتهم مما يدل على ان الفسطاط كانت ما تزال مركزا هاما للحركة العلمية والادبية ووفد ابن سعيد الاندلسي الى مصر بعد ذلك بنحو قرن، نحو سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠م)، ولبث بها أعواما طويلة يدرس شئونها واحوالها، فاذا بالفسطاط ما تزال تحتفظ باهميتها الادبية، واذا بها ما تزال مثوى للأدباء، ومركزا لأبهاء الادب، واذا لياليها الادبية ما تزال شهيرة. ويفرد ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» فصلا كبيرا للفسطاط عنوانه: «كتاب الاغتباط في حلى الفسطاط» [4] يتحدث فيه عن المدينة، وزياراته لها واجتماعاته بادبائها، ولا سيما شاعرها الكبير جمال الدين أبي الحسن الجزار، أشهر شعراء مصر في هذا العصر، وملقيه من كرم وفادته وشهده من رائع أدبه، وقد كان الشاعر الكبير يومئذ، على ما يظهر شابا في عنفوان شاعريته لأنه توفي بعد ذلك بنحو أربعين سنة في (٦٧٩هـ ١٢٨٠ م) [5] وهو صاحب الارجوزة التاريخية الشهيرة المسماة «بالعقود الدرية في الامراء المصرية» وفيها يستعرض ذكر أمراء مصر وملوكها منذ عمرو بن العاص الى الملك الظاهر بيبرس [6]. وكانت

(١) راجع تاريخ القاهرة ونشأتها وتطوراتها، وتاريخ خططها في كتابي «مصر الاسلامية» و«تاريخ الخطط المصرية».

(٢) توفي امية بن ابي الصلت الاندلسي سنة ٥٢٩ هـ

(٣) توجد عدة صفحات مخطوطة من هذه الشذور، ذيل بها كتاب «أسمار سيبويه المصري» الذي سيقت الاشارة اليه (مخطوط معروض بدار الكتب رقم ٢٥٤ تاريخ). ومما يدل على ان هذه الشذور انما هي جزء من رسالة كتبها امية بن أبي الصلت عن مصر، هو اشارة ابن ابي اصيبعة اليها في كتاب منافع الاطباء (ج ٢ ص ١٠٦)، وكذلك اقتباس ابن القفطي منها في كتابه «اخبار الحكماء» (ص ١٢٧)

(٤) راجع هذا الكتاب في مجموعة الكتب التي يضمها كتاب «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد الاندلسي. وهذه اربع مجلدات مخطوطة بدار الكتب هي الوحيدة منه. وليست متصلة ولا متناسقة، لانها جزء من الكتاب الاصلي فقط (رقم ٢٧١٢ تاريخ). وقد نشر المستشرق تاكهات منه قسما هو «كتاب العيون الدعج في حلى بني طغج»

(٥) راجع ترجمة جمال الدين الجزار في السيوطي — حسن المحاضرة — (ج ١ ص ٢٢٢). وقد اورد له ابن سعيد ايضا ترجمة في «المغرب» في المجلد الثاني من المخطوط الورقة ١٤١

(٦) نشرت هذه الارجوزة برمتها في حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٤١)

الفسطاط قد عادت يومئذ فاستردت كثيرا من بهائها السالف ، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيام المدينة الملكية الجديدة التي أنشأها الملك الصالح في جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط (سنة ٦٣٨هـ) واتخاذها قاعدة للسلطنة ، وانتقال البلاط والحاشية اليها ، وسكن كثير من الامراء والكبراء بالفسطاط في الضفة المقابلة لهم النيل ، وهو ما يشير اليه ابن سعيد في قوله ، « وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها الجزيرة الصالحية (جزيرة الروضة) ، وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تهيج الناظر »

ويشير ابن سعيد في كتابه السالف الذكر الى ليالي الفسطاط واجتماعاتها الثانية في الليالي القمرية ، وأشهرها ما كان يعقد في القرافة عند ضريح المقطم في قبة الامام الشافعي التي كانت قد أنشئت على قبره . وكان المسجد الجامع قد عفت أهميته شيئا فشيئا منذ قام منافسه القوي ، الجامع الازهر وغيره من المساجد والمدارس الجامعة بمدينة القاهرة ، ولكنا نراه ما يزال حتى القرن السابع مثوى للأدب واجتماعاته ، ورغم عفائه وقدمه ونسيان أمره ، كانت تعقد في عرصاته حلقات للقراءة والدرس ، وهو ما يشير اليه ابن سعيد أيضا خلال وصفه للمسجد الجامع في منتصف القرن السابع ، بيد ان هذه الحلقات لم تكن من الاهمية والرونق والانتظام بمثل ما كانت عليه في القرون الاولى يوم كان المسجد الجامع مجتمع الامراء واقطاب التفكير والادب . وكانت يومئذ أقرب الى الصفة المدرسية . ومع ذلك فقد بقي للمسجد الجامع حتى ذلك العصر كثير من ذكرياته الادبية المجيدة . وهي حكمة الادباء والشعراء ، يجتمعون فيه كما سنحت فرص الاجتماع لعقد الاسمار والمطارحات الادبية . واليك نموذجا لهذه الاجتماعات الشهيرة اورده ابن فضل العمري في موسوعته الكبيرة « مسالك الابصار في ممالك الامصار » في حديثه عن المسجد الجامع .

« حكى علي بن ظافر الازدي . قال : روى لي أن الاعز أبا الفتوح ابن قلاقس . وابن المنجم اجتمعا في منار الجامع في ليلة فطر ظهر بها الهلال للعيون . وبرز في صفحة بحر النيل كالنون . ومعهما جماعة من غواة الادب الذين ينسلون اليه من كل حدب . فلما رأوا الشمس فوق النيل غاربة . والي مستقرها جارية ذاهبة . وقد شمرت للمغرب الذيل . واصفرت خوفا من هجمة الليل . والهلال في حمرة الشفق . كحاجب الشاعب أو زورق الورق . فاقترحوا عليهما أن يصنعا في ذلك الوقت الزيه . على البديه . فصنع ابن قلاقس :

انظر الى الشمس فوق النيل عارية
وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وابقت شعاعا منه يخلفها
كأنما احترقت بالماء في الغرق
والهلال ، فهل والى ليقذفها
في أثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

وصنع ابن المنجم :

يارب سامية في الجو فت بها ... أسد طرفي في أرض من الافق
حيث العشية في التمثيل ممركة ... اذا رآها جبان مات للفرق
شمس نهارية للغرب زاهية ... بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
والهلال انعطاف كالسنان بدا ... من سورة الطعن ملقى في دم الشفق

« وحكى علي بن ظافر أيضا ، قال : اخبرني ابن المنجم الصواف بما معناه : قال ، صعدت الى سطح الجامع بمصر في آخر رمضان مع جماعة فصادفت به الاديب الاعز أبا الفتوح بن قلاقس ونشو الملك علي بن مفرج بن المنجم وشجاعا الفرنجي في جماعة من الادباء . فانضممت اليهم . فلما غابت الشمس وفاتت ، اقترح الجماعة على ابن قلاقس وابن المنجم ان يعملا في صفة الحال . فكان ما صنعه نشو الملك :

وعشي كأنما الافق فيه ... لازورد مرصع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمـ ... ـس ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا ... را فاعطى الرهين نصف سوار

وكان الذي صنعه ابن قلاقس :

لاتظن الظلام قد أخذ الشمـ ... ـس واعطي النهار هذا الهلالا
أنما الشرق اقرض الغرب دينـ ... ـارا فاعطاه رهنه خلخالا (١)

ونحن نعرف أن الشاعر المصري الاسكندري الاشهر ابن قلاقس كان من شعراء النصف الاخير من القرن السادس الهجري (٥٣٢ — ٦٠٧ هـ) وكذلك ابن المنجم من شعراء هذا العصر . واذن فقد كان المسجد الجامع ، حتى أوائل القرن السابع منتدى لأكابر الادباء والشعراء ، وكانت الفسطاط لا تزال شهيرة بلياليها وحلقاتها الادبية ، حتى بعد ذلك بنحو نصف قرن على نحو ما يشير اليه ابن سعيد الاندلسي .

***

ومنذ أواخر القرن السابع الهجري نرى الفسطاط تفقد اهميتها الاجتماعية والادبية شيئا فشيئا ، ونرى المسجد الجامع وقد غمره النسيان والعفاء . وقلما نظفر في سير القرن الثامن بما ينبيء عن مكانة الفسطاط أو أهميتها الاجتماعية أو الادبية . بل نرى الفسطاط في هذا العصر تنحى الى ناحية متواضعة لمدينة القاهرة . ونرى القاهرة تنمو بعظمتها وبهائها وأهميتها العلمية والادبية عاصمة الاسلام الاولى في مصر . ونراها مثوى كل حركة فكرية أو أدبية . ونرى الجامع الازهر كعبة العلماء والادباء لا في مصر وحدها بل في العالم الاسلامي كله ، على أن مؤرخ الآداب في مصر الاسلامية لا يسعه — حين يعالج تاريخ الآداب في عصور الاسلام الاولى الا أن يلاحظ أهمية الدور الكبير الذي أدته الفسطاط وحلقاتها ولياليها الادبية ، وأداء مسجدها الجامع في تطور الحركة الفكرية والادبية في مصر .

(١) مسالك الابصار ج ١ (طبع دار الكتب) ص ٢١٠ و ٢١١